مفهوم "الهوية" في عالم اليوم

• عبد النبي اصطيف

من أنا ؟

من نحن ؟

سؤال يردده الفرد منا، وتردده الجماعة، ولا سيما في اللحظات الحرجة (وهل ثمة لحظات أكثر زلزلة لعالمنا ولما ترسخ فيه من يقينيات من اللحظات التي نمرّ بها اليوم؟)، التي تدفع كليهما إلى مساءلة النفس عن حقيقة هويتها التي كانت، حتى تلك اللحظة، مجرد بدهية، أو تحصيل حاصل، أو حقيقة واضحة وضوح الشمس.

ولاجرم أن انبثاق ما يسمى بالنظام العالمي الجديد New World Order ومارافقه من عولمة Globalization للوجود الإنساني على مختلف المستويات، ولاسيما المستوى المعرفي والمعلوماتي منه، قد نمّى هذه اللحظات الحرجة في الحياة الإنسانية، وجعل المرء يسائل نفسه وهو يتأملها تغرق في فيض من القوى التي تحيط بعالمه:

•قوة سياسية وعسكرية عظمى ذات سلطان وجبروت لا حدود لهما، تعبئ إمكاناتها وإمكانات حلفائها على مستوى العالم، بالترغيب والترهيب، لتغير كل ما لا يروقها في أي بقعة من بقاع العالم، بحق القوة، وتحت مظلة القانون الدولي، الذي تخطه في مجلس الأمن أو غيره من المنظمات الدولية التي تدير العالم من خلالها.

•قوة اقتصادية هائلة لا تعبأ بالحدود السياسية أو القومية أو اللغوية أو العرقية أو الدينية تبحث عن اليد العاملة الرخيصة، والمادة الأولية البخسة، والأنظمة البيئية المرنة، والأسواق القريبة التي تستهلك الأخضر واليابس، والقوانين التي تيسر الاستثمار بأفضل عائد ومهما بلغ الثمن الإنساني أو غلا.

•وقوة معلوماتية خارقة قادرة على الوصول إلى أية بقعة من بقاع العالم بتقنياتها التي تجاوزت حدود الحلم والخيال والطموح العلمي، تُقرِّب البعيد، وتُدخل المستحيل في دائرة الممكن، وعالم الحلم في فسحة اليقظة، وتُحوِّل العالم إلى " قرية كونية " Global Village متداخلة الأحياء والسكان الذين يحلّون ويرتحلون بحثاً عن الرزق حيناً، ونشداناً للحرية حيناً آخر، وفراراً من الملاحقة التي تمليها عملية "الدحل" (من المدحلة) لكل ما هو مختلف مُباين وبارز على مستوى من المستويات.

وهكذا بات المرء يسائل نفسه من هو ؟ وما هو ؟ وإذا كان يعرف من هو:

•من خلال اسمه؛

•وتاريخ ولادته ومكانها؛

•وأسماء أبويه وجديه؛

•وملامحه وقسماته الشخصية،

•وغير ذلك من المعطيات، التي تدخل شبكة المعلومات المتصلة به في بلده أو خارجها، والتي تتحول في هذه الشبكة إلى معادلات رقمية تُستعاد بلمسة مفتاح من حاسوب؛

فإنه يكاد يجهل ما هو، ولا سيما عندما يرى نفسه تخضع للتحولات الهائلة التي يتطلبها الانتماء للعصر، فتزداد حيرته كل يوم عندما يرى أنه بات لا يعرف هذه النفس التي كانت في يوم ما نفسه وذاته وهويته-بل ربما رأى فيها جوهره الذي لم يعد أكثر من وهم.

والحقيقة أن من أبرز ما فرزته الحياة المعاصرة في ظل التطورات التي يشهدها العالم اليوم مفهوماً للهوية يناقض كل ما عرفناه عنها حتى عهد قريب. وهو مفهوم يقوم على زعزعة :

•وحدة الهوية : ذلك أن هوية اليوم لم تعد "وحدة"، بل غدت شظايا يجمعها وهم الوحدة. والناظر بعمق إلى هويته "الفردية" (المزعومة) يستطيع أن يتبين أنها في حقيقة الأمر مزيج معقد من الهويات الجمعية collective identities التي تأتلف في النفس الإنسانية على نحو عجيب يمكّنها من أن تسمح لواحدة منها بالسيادة على سائر الهويات الأخرى في ظرف زماني ومكاني محدد. فالرجل منا يجمع بين جوانحه الأب والزوج ورب الأسرة (وربما الابن، أوالصهر وغيرهما) في البيت، وهو المدير أو المستخدَم، أو ما يسنده له المجتمع من وظيفة في شبكة العلاقات الوظيفية والاجتماعية التي يتحرك فيها. وهو السياسي، وهو الرياضي، وهو الكاتب، وهو المتسوق، وهو المحاضر، وهو المستمع، وهو.....وهو كل ذلك حتى عندما لا يفكر به، اللهم إلا عندما تتنازع على هواه هويتان تقفان على طرفي نقيض. والمرأة كذلك هي الزوجة والأم والكنة والموظفة والمدرِّسة ولاحقاً الحماة والجدة، وهي الناشطة السياسية، وهي الرياضية، وهي الكاتبة، وهي المتسوقة، وهي المحاضرة، وهي عضو المجلس التشريعي، وهي الوزيرة، وهي المستمعة، وهي ....

والمفارقة أن الإنسان لطالما حسب أنه جرم صغير، وفيه انطوى عالم واسع وغني ومتنوع من الهويات التي تدور في فلك "نفسه" فيما يتوهم.

•ثبات الهوية : ذلك أن هوية اليوم أبعد ما تكون عن الثبات فهي دائبة التغير والتطور والتحول. وإذا ما نظر المرء إلى هويته من منظور تاريخي فإنه سرعان ما يتضح له أنها مرّت بمراحل مختلفة من الطفولة والحداثة والصبا والشباب والكهولة والشيخوخة والعجز، يشكل كل منها هوية خاصة بها، ولا يجمعها بالهويات الأخرى غير كونها تحمل الاسم نفسه، وتسكن الجسد ذاته، أما ما خلا ذلك فإن كلاً منها متميز ومختلف عن الآخر.

•أصل الهوية : فما ننسبه لأنفسنا من هوية لا يستند إلى أصل مكين باستثناء لون بشرتنا، ونوعنا أو جنسنا (كون الواحد منا ذكراً أو أنثى- وتصنيف كهذا غدا كذلك موضع مساءلة جدِّية في بعض المجتمعات). أما ما خلا ذلك فإنه مكتَسب ولا جذور له إلا في غياهب أوهامنا. ذلك أن هويتنا لا تولد معنا بمقدار ما نكتسبها تدريجياً أوبتعبير أدق بمقدار ما نكتسب وجوهها المختلفة، وأطوارها المتعاقبة، عبر انغماسنا بتيار الزمن، أو مروره بنا.

نعم لقد تطوّر مفهوم "الهوية" بفعل الأحداث الجسام التي مر بها العالم على مدى القرنين الماضيين من جهة- هذه الأحداث الناجمة التي عاشها العالم ولايزال في ظل مايمكن تسميته بـ التركة الإمبريالية Imperial Legacy، وبفعل تأثيرات مختلف العلوم الإنسانية (علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلوم اللسانيات، والأنتروبولوجيا وغيرها) وما شهدته من تطورات هائلة ولاسيما في النصف الثاني من القرن العشرين من جهة أخرى، فضلاً عن ثورة الاتصالات التي حوّلت العالم إلى قرية كونية. وهكذا خضع مفهوم "الهوية لمساءلة شديدة، وبالنتيجة، لتغيرات جذرية في مقاربته وفي مقولاته التي كانت في يوم من الأيام مُطمئنّة مطَمْئنة، قارّة ومستقرة، وغدتَ وحدة الهوية، وثباتها، وأصلها مما عفا عليه الدهر، وأصبح بين عشية وضحاها نسياً منسياً.

فهوية اليوم لم تعد تتمتع بأي مقدار من الوحدة "Unity"، لأنها إهاب يجمع بين حناياه كثرةً من الهويات المتوازية المعايشة التي يألف بعضها بعضها الآخر ويقبله على أنه حقيقة من حقائق الحياة. إنها اليوم "شظايا يجمعها وهم الوحدة"، والناظر بعمق إلى الفردية المزعومة التي تنسب إلى الهوية يستطيع أن يتبين أنها في حقيقة الأمر مزيج معقد من الهويات الجمعية التي تأتلف في النفس الإنسانية على نحو عجيب يمكنها من أن تسمح لواحدة منها بالسيادة على سائر الهويات الأخرى في ظرف زماني ومكاني محدد. وهوية اليوم أبعد ما تكون عن الثبات، فهي دائبة التغير والتطور والتحوّل. ولم تقتصر مساءلة مفهوم الهوية على "وحدتها" و "ثباتها" بل تعدت ذلك إلى "أصلها" أيضاً، فما ندّعيه لأنفسنا لا أصل له، وحتى لون بشرتنا بات قابلاً للتغيير بفعل العوامل الخارجية، وكذلك شأن نوعنا أو جنسنا الذي غدا موضع مساءلة شائكة ومثيرة وشائقة، في بعض المجتمعات الغربية "المتقدمة".

•والسؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح بهذه المناسبة هو:

ما علاقة هذا الفهم للهوية بالمواطنة بوصفها هوية للمجتمعات الحديثة التي تنعم أو تسعى إلى أن تنعم بمنجزات الحضارة الإنسانية في الألف الثالثة؟

الحقيقة أن هذا الفهم يكفل أشياء ثلاثة:

•أولها: أن الهوية مُنشأ اجتماعي social construct، ومعنى هذا أنها شأن اجتماعي، أي أن المجتمع مسؤول عن إنشائها، بل هو قادر على إنشائها، لتكون أساساً للمواطنة التي ينشدها؛

•ثانياً: أن الهوية منشأ ينطوي على تنوع وتعدد يغنيانه ويوسعان أفقه ليشمل طيفاً واسعاً من وجوه الهوية يجمع بينها بانسجام تام، دون أي خوف من الإقصاء الذي يمارسه البعض لوجه من وجوه هويته لخوفه من تأثيرها السلبي على وجوهها الأخرى؛

•ثالثاً: أن الهوية منشأ قابل للتغيير والتطوير مما يرسخ الأمل بإمكانية خلق هوية تجمع، وتسمح بالتواصل مع "الآخر" على أساس وجه من وجوه الذات.

بين الوعي والإبداع

• عيد الدرويش

لم يألف الإنسان حياته بدون إبداع، ولا يألف الإبداع بدون وعي، وما بينهما تتحدد مكانة الإنسان ودرجة رقيه وتعامله مع الآخرين، وبدونهما لا يتميز الإنسان عن بقية الكائنات الأخرى.

فالوعي هو الحالة الوحيدة التي نعبر بها عن أنفسنا، بأننا موجودون في هذا العالم، كما هو حالة ذاتية فردية، فلا نستطيع أن نضع له مستوى معين لكل فرد، ويقول سارتر"إن كل وعي هو وعي بشيء ما" وهو شرط لازم لحالة الإبداع، ولكن الإبداع ليس شرطاً لازماً للوعي، ويبقى الوعي- في أقل تقدير- هو إبداع في وعي الضرورة، كما يحافظ على الحالة الوظيفية والسلوكية، وثمة فوارق كثيرة وكبيرة بين فرد وآخر في مستوى الوعي، وكذلك في مستوى الإبداع أيضاً.

فالوعي هو المنظومة المعرفية التي يمتلكها الإنسان، تستند على تجربة ما، واطلاع وتدريب وتأهيل وخبرات شخصية، ولجت الذهن عبر الحواس الخمس، فضلاً عن رهافة الحواس الداخلية من الشعور والانتباه والإدراك والملاحظة، وفي مستويات متقدمة،وحالات الشعور الداخلي لموضوع، أو فكرة يستثيرفضوله، وعصف ذهني لتلك الظواهر، ومروراً بحالات التركيب والتحليل والسجال الداخلي، مما ينتج عنه سلوكاً معبراً عن الإبداع، وإن حالة الإبداع هذه تكون مساوية لحالة الوعي التي يمتلكها الفرد، وبها تتحدد درجة وعيه لهذا الموضوع أو ذاك، ولا شك أنها متقدمة على الآخرين وعياً وإبداعاً، ويقول "برغسون"(ليس ثمة وعيٌ دون ضرب من الانتباه للحياة) فالوعي يتحدد بدرجات الصفاء الذهني، وفاعليته الوظيفية، وسلامة الحواس والأحاسيس، ويعبر عنه بكل جوانب السلوك والانفعال الإنساني.

أما الإبداع فهو الصورة لتلك الأعمال التي تفيض من وعاء الوعي، بعد أن ساهمت في انجازه مجموعة من العوامل المتشكلة في تشكيل الإبداع، وهو يتجسد في مجالات متعددة، كما هو ميل طبيعي يسلكه الإنسان من أجل إثبات الذات، والخروج من حالة الكمون، فيما يتعلق في سلوك الإنسان، وفي أوجه متعددة سواء أكان ذلك في الكتابة أم في الموسيقى أو الفن التشكيلي، وفي مجالات أخرى في التصنيع، أو التركيب والاختراع، وسرعة التكّيف لهذا الفرد، مبرزاً طاقات متفردة عما لدى الآخرين من أقرانه، والإبداع لا يكون محض صدفة، بل يُبنى على الكثير من مقومات المعرفة، تتوافق مع تلك القدرات والاستعدادات الفطرية التي يتميز بها هذا الفرد أو ذاك، عند ذلك تتحدد درجة ومستوى الإبداع الفردي، ولا ننسى ما للتدريب والمعرفة والحوارات والندوات من صقل هذه المواهب، التي تزيد من الثراء المعرفي مما يزيد في حالات الإبداع، وحالة الإبداع هذه هي تلك المعرفة المكثفة التي اختزلها الفرد، من خلال معرفته واطلاعه على الكثير من العلوم والآداب والثقافة العامة، لتخرج بشكل جديد ومستنبط، يستطيع أن ينتفع به أبناء البشر، والإبداع ليس محصوراً في جهة دون أخرى، وليس بشريحة من البشر دون غيرها، ويقول فرويد(إن قوة المبدع الليبيدية هي التي يُعترف بها عندئذ ذلك هو أمر فني بقدر ما هو ديني).

في الخصوبة الثقافية يرتفع منسوب الوعي، مما يجعل الإبداع وفيراً، ليتخلص الإنسان من أوثانه الداخلية والخارجية، وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الأمم والشعوب، وتمر هذه المجتمعات في حالات جدب في الوعي ويترافق ذلك حالة تصحر في الإبداع، فتتأخر هذه المجتمعات عن الركب الحضاري والإبداعي.

لا تتوقف حالتي الوعي والإبداع في الجوانب الفنية والأدبية والعلمية، كذلك يشكل رافعة أساسية للسياسة، وللاقتصاد وكل جوانب الحياة الأخرى، ومن يمتلكون وعياً تاريخياً ومعرفياً سيغيرون مجرى الأحداث، وكتابة التاريخ لمن هم أكثر وعياً بمواقفهم ونتاجاتهم، وحري بنا من نقوم بدورنا في المساهمة في إثراء حالة الوعي لدى الأجيال التي تحتاج منا الكثير من هذه الجوانب لتشكيلها وتقديم يد العون لها، ونجعلها قادرة على الإنتاج، ونطلق لها العنان لمسيرة التقدم والتطور، ونهيىء لهم كل المستلزمات وتنمية الذائقة الفنية والعلمية والبصرية، والعمل كبيروشاق، ولكنه ليس بالعسير، لرفع مستوى الوعي الفردي، وصولاً للوعي الجمعي، وبهما نبني جيل المعرفة، والمجتمع الذي يتمتع بخصوبة الوعي قادر على مواجهة المستجدات وتلبية الحاجات، والسيطرة على كل الصعوبات التي تعيق تقدمه، فالوعي والإبداع يسهمان كثيراً في المنافسة، وينعكس ذلك على المجتمع والعالم، فالوعي لدى شعب قد يستجلب كل حالات الإبداع من أمم أخرى، مما يتكون لدية معرفة، وحالات وعي جديدة، تسهم هي الأخرى في خصوبة الإبداع لديهم، وكلما أثرت الأمم بالمعرفة لأبنائها ارتفع منسوب الإبداع، ومن هنا تتمايز الشعوب والحضارات في فترات متقطعة، وليست دائمة، وناتج عن مسؤولية اجتماعية فضلاً عن أنها فردية المنشأ، ولكنها مجتمعية في الرعاية والاهتمام في الحفاظ على مستوى الوعي والإبداع لكل شعب أو أمة.